افتتاحية العدد:

النّقد والأدب

بقلم الأستاذ الدكتور وجيه فانوس

(دكتوراه في النَّقد من جامعة أكسفورد)

(أستاذ في المعهد العالي للدكتوراه في الجامعة اللبنانية)

(رئيس المركز الثقافي الإسلامي)

يَرْتَبِطُ وجودُ «الأدب» بالنّاس، ارتباطاً حتمياً. النّاس باعتبارهم مُرْسِلينَ، بمعنى «مُنتِجين» للأدب، والنّاس باعتبارهم مُسْتَقْبلينَ، أي، «مُتفاعِلين» مع الأدب. ولا بدَّ من التَّوضيح، أنَّ استخدام هذين المعنيين «ههنا، ليس إلا من باب محاولة تبسيطٍ تقريبيٍّ للموضوع؛ إذ العملُ الأدبيُّ لا يمكن أن يكونَ مُجَرَّد «نَصٍّ» يَضَعه مُرْسِلٌ؛ فإنَّ لمُسْتَقْبِلِ هذا النَّصِّ نَصيبٌ واضِحٌ في تأمينِ جوانبَ كثيرةٍ لِما يُمكنُ أنْ ينبثقَ عن النَّصِّ مِن إبداعٍ وجمالٍ وفُسحاتِ فِكْر.

يَرْتَهِنُ وجود النَّاسِ، ارْتِهاناً حتمِيّاً كذلك، بفاعليَّاتِهِم في الحياة؛ إذ هُم، شاؤوا أم أبوا، أبناءُ الحياةِ ونتاجها؛ ولذا، فلا يمكنهم العيش خارجها؛ ولا يمكنهم، تالياً، ومهما حاولوا، الهروبَ منها أو الخلاصَ من ارتباطهم بِها، إلاَّ بالموت؛ بل لعلَّ ثمَّة من يرى أنَّ المَوتَ، لا يُنْهي العلاقةَ بالحياةِ، إذ يبقى، بطريقةٍ أو أخرى، استمراراً لفاعِلِيَّةِ العَيْشِ الإنْسانِيِّ فيها.

لذا، فطالما أنَّ الحياةَ لا تزال فِعْلَ تدفُّقٍ في شرايين الزَّمن؛ فإنَّ «النّاس» هُمْ أبناؤها؛ و«الأدبُ»، الذي يُرْسِلونَ ويَسْتَقْبلونَ، هو مِنْ المُحصِّلاتِ الطَّبيعيّةِ لهذه الحياة. ولطالما عَبَرَ كثيرون عن هذا الحالِ بقولِهِم «إنَّ الأدبَ ابنُ الحياةِ»، أو «ابنُ بيئتِهِ».

حتّى الآن، ولا مُشْكِلَة. تَبْرُزُ المشكلةُ آنَ يُدْرِكُ المرءُ مدى تَنَوّع ناسِ الحياةِ؛ إذ هم ليسوا واحداً، على الإطلاقِ؛ لا في ظروفِهِم الخاصَّةِ، ولا في بيئاتهم العامَّة. ولعلّ لِكُلِّ واحدٍ مِن هؤلاءِ، خصوصيَّتَهُ المُمْعِنَة في فَرادَتِها، والمُغْرِقَة في تَمايُزِها، إلى درجةٍ تجعلُ مِنْ كلِّ إنسانٍ، وكأنَّهُ يعيشُ في غرفةٍ زُجاجيّةٍ مُغْلَقَةٍ. صَفَتْ جُدرانُ هذهِ الغرفة وشَفَّت، إلى درجةِ الإيهامِ النفَّاذِ بأنَّها غير مَوْجودةٍ؛ لَكِنَّها، موجودةٌ، في

الواقعِ المَعِيشِ، بلْ مُمْعِنَةٌ في وجودِها؛ ومُغْرِقَةٌ، في الوقتِ عينِهِ، في عزلِها لصاحبِها عن الآخرين. وقد يخالُ المرءُ، في هذهِ الحال، أنَّه على تَواصُلٍ مَع سِواهُ؛ لكنَّهُ قَدْ يَكتشفَ أنْ لا تواصُلَ ولا وُصولَ. قد يَستَنْبِطُ، هذا المرءُ، بِحالٍ مِنَ إشراقاتِ الوعي المُؤلِم ولكن الجميل في آن، أنَّ جُدرانَهُ الزُّجاجيّةَ هذه، لا تَنْفَكُّ أبداً تَسْعى إلى الحَؤولِ دونَ التَّواصلِ والوصولِ؛ وإنْ كانت، في الوقتِ عَيْنِهِ، تُشجّع، وباستمرارٍ، على تَوَهُّمٍ فَذٍّ لوجودهما.

«النّاس»، في وجودِهِم، مُرْسِلينَ للأدبِ أو مُسْتَقْبلينَ لهُ، يُمارسونَ فِعْلَ مُحاولَةِ اختراقِ خَلاَّبةٍ لهذه الجُدْرانِ (السُّدودِ) الزُّجاجيَّةِ الصَّافِيةِ، التي قد يكونُ بَعْضُها رَقيقاً قابلاً لِبَعْضِ اختراقٍ أو لِحُصولِ بَعْضِ تَواصُلٍ؛ ويكونُ بعضُها الآخر، على ما في شَفافِيَّتِهِ مِن صفاءٍ، ثَخيناً غَيْرَ قابلٍ لأيٍّ اختراقٍ أو حصولِ أيِّ تَواصُلٍ. كُلّ هذا يَرْتَبِطُ بِتقارُبِ بِيئَةِ كُلِّ إنسانٍ، في بُعدَيْها الخاصِّ والعام، مِن بِيئَةِ الإنْسانِ الآخر؛ وكذلكَ هُوَ الحالُ مَع الجماعاتِ؛ التي، هِيَ أَيْضاً، تَخْضَعُ لِمَبْدأ الغُرَفِ الزُّجاجِيّةِ عَيْنِهِ.

يبدأ الفَرْزُ الظَّاهريُّ، وليسَ الجوهريُّ البتَّةَ، في مجالِ الأدبِ، على هذا الأساسِ من التَّفاعِلِ، عَبْرَ زُجاجِ هذهِ الغُرَفِ؛ فَما استطاعَ النّاسُ اختراقَهُ، أو الاختراقَ بِهِ، اعتُرِفَ بهِ أدباً؛ وما عَجزوا عنِ اختراقٍ لَهُ، أو الاختراقِ بِهِ، رُفِضَ مِنْ دُنيا هؤلاءِ، ولعلّهُ أُخْرِجَ مِن عالَمِ فَهْمِهِم للأدبِ! وهذا، لا يَعني، مُطْلَقًا»، أنَّ العَمَلَ قد يكونُ فاقداً لأَدَبِيَّةٍ وُجوده، بقدر ما يُمكنُ أنْ يَعني أنَّ هذهِ الأدبيَّةَ للوجود اسْتَغْلَقَت على مُسْتَقْبِليها. تَنْبَثِقُ، هَهُنا، مُعْضِلَةٌ أساسٌ؛ إذْ ما مِن أَحَدٍ يُرْسِلُ أدباً، إلاّ ويَسْعى، عَبْرَ ما يُرْسِلُ، إلى ما يُخَمِّنُ أنَّ لَدَيْهِ قدرةً على خَرْقِ الحَواجِزِ الزُّجاجيّةِ إيَّاها. والمُرْسِلُ، في فِعْلِهِ هذا، لا يُمارِسُ سِوى حَياتَه؛ التي يَرى أنَّها واجِبٌ عليهِ وحَقٌّ له. هِيَ واجبٌ عليهِ، لأنَّهُ مِن أبناءِ الحَياةِ؛ ولا بُدَّ لَهُ مِنْ أَنْ يُمارِسَ عَيْشَهُ في هذهِ الحياةِ ومِن خِلالِها. وهيَ حَقٌّ لَهُ، لأنّهُ طالما يُمارِسُ عَيْشَهُ، فَلَهُ أنْ يُعَبِّرَ عَن رَأْيِهِ في هذا العَيْشِ ويَرْسُمَ، إذا ما استَطاعَ، جمالات ما يَعيشهُ أو قُبْحَهُ أَو ما يَتَحَصَّل لهُ مِنْ هذا العيشِ مِن مشاعِرٍ وأَحاسيسٍ وآمالٍ وخيباتٍ؛ كما لَهُ، كذلكَ، أنْ يَسعى إلى فِعْلٍ في هذا العَيْشِ يَكونُ بَصْمَةَ وُجودِهِ الخاصَّةِ فيهِ. أَفَيَجُوزُ، تالِياً، لِلآخَرينَ، أنْ يَمْنَعُوهُ عَنْ فِعْلِ العَيْشِ هذا؛ وأنْ يَمْنَعوا أَنْفُسَهُم، كذلكَ، مِن محاولةِ التَّواصُلِ مَعَهُ؟ بَلْ هل يَجوزُ أنْ يُمْعِنَ مُسْتَقْبِلُ العَمَلِ في أَنْ يَعْتَبِرَ ما لا يَفْهَمَهُ أو ما لا يَسْتَطيع اختراقَهُ للتَّواصُلِ معهُ، خارِجاً عن مجالاتِ الأدبِ وفاقداً لِنَبْضِ الحياةِ؟!

لَيْسَ هذا الموضوعُ جديداً البَتَّةَ. لَقَدْ عاناهُ، على سبيلِ المِثالِ، الشَّاعِرُ العَرَبِيُّ «أبو تَمّام» في العَصْرِ العَبَّاسيِّ؛ وعاناهُ مَعَهُ النّاسُ الَّذينَ كانَ يَسْعى هوَ إلى التَّواصُلِ مَعَهُم، ويَسْعَونَ هُم إلى التَّواصُلِ مَعَهُ. فقالوا لَهُ، مُسْتَفْسِرينَ، «لِمَ لا تقولُ ما يُفْهَم؟»؛ وما كانَ مِنْهُ، زَمَنَئِذٍ، إلاّ أنْ صرخَ، مَفْجُوعاً، «ولِمَ لا تَفْهَمونَ ما يُقال؟». صَرْخَةٌ تَخْتَصِرُ مَأساةَ الأَدَبِ والحياةِ.

مَهامُّ النَّقدِ كثيرةٌ؛ بَيْدَ أنَّ الأَهمَّ فِيها، أنْ يَسْعى العقلُ النَّقدي لِيَكُونَ مَعَ المُرْسِلِ والمُسْتَقْبِلِ في مُحاولةِ كُلٍّ مِنهما للتَّواصُلِ معاً، عَبْرَ الجُدرانِ الزُّجاجيَّةِ أو بالسَّعي إلى اختراقٍ ما لها، على قَدْرِ ما يُمْكِن؛ وإلاّ ظلَّ النّقدُ، أيُّ نَقْدٍ أَدَبِيٍّ أو سِياسيٍّ أَو اجتماعيٍّ أو حتَّى عِلْمِيٍّ، فِعْلَ مراقبةٍ وامْتِحانٍ، كَمُراقَبَةِ شُرْطَةِ الجَمارِكِ الجامدةِ، وربَّما الخشبيَّةِ، النَّاتِئَةِ عَنْ جَوْهَرِ الحياةِ، لبعضِ اللُّغةِ ولبعضِ فنونِ البلاغةِ؛ وما شابَهَ ذَلكَ، مِنْ تِقنيَّاتِ الأدبِ والسِّياسةِ والاجتماع والعلومِ؛ والتي، على أهميَّتِها، لَيْسَت الهاجِسَ النِّهائيّ للإنسانِ، في تَعامُلِهِ معَ الأدبِ خاصَّةً، ومعَ العطاءِ الإنسانيِّ عامَّةً، ومَعَ الحياةِ. فَهْمُ تلكَ التِّقنيَّاتِ ومُراقَبَتُها، يبقى مِنْ الوسائلِ في النَّقدِ؛ أمّا الغايةُ الرَّائعَةُ مِنَ المُمارَسَةِ النَّقديَّة، بلْ العَيْشِ النَّقديِّ، فَتَكْمُنُ في اختراقِ الجُدرانِ الزُّجاجِيَّةِ، أو في محاولةِ التَّواصُلِ الفِعليِّ والجوهريِّ مِنْ خِلالِها.